



فهمُ هذا السؤال أصعب من جوابه، فإننا لن نستطيع معرفة الجواب إلا بعد الإجابة عن السؤال الأهم: ما الخير وما الشر؟
زعموا أن حكيمًا صينيًّا عاش في زمن مضى وكان عنده جواد من أجود الخيول قاطبة، ثم أصبح ذات يوم فإذا بباب الحظيرة مكسور والجواد مفقود. وجاء أهل الضيّعة يواسونه، فقال: في أي شيء تواسونني؟ قالوا: في فَقد الجواد. قال: وما أدرامكم أنه شر؟ فعجبوا منه وتركوه. ثم رجع الجواد إلى صاحبه بعد حين، فجاء القوم يهنتونه. قال: في أي شيء تهنئونني؟ قالوا: في عودة الجواد الصائِع. قال: وما أدرامكم أنه خير؟ ثم إن ولده الشاب امتطى الجواد فجمح به فسقط وكسرت رجله، فجاء القوم يواسونه في مصابه. قال: ما أدرامكم أنه شر؟ ثم قامت حربٌ فجُمع الشباب من القرى وسيقوا إلى ميادين القتال فمات كثيرون، وتُرك الشاب بسبب رجله الكسيرة فنجا، فجاء أهل الضيّعة يهنتون الحكيم بنجاة ولده، فقال: وما أدرامكم أنه شر؟ قالوا: دعوه فإنه مجنون.

* * *

لا، ما بالرجل جنون، إنما هو باحث عن جواب السؤال الذي حير العوام والحكماء: ما الشر وما الخير؟

ربما قال بعض الناس: الشر هو ما نحسّ أنه شر بالحدس والعقل. يرد ربنا تبارك وتعالى على هذا التعريف بقوله: {لَا

تحسبوه شرًّا لكم، بل هو خير لكم}. يقولون: الخير ما نحبه والشر ما نكرهه. نقول: فأين تذهبون بقوله تعالى: {وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم؟} يقولون: فليكن الخير إذن هو ما امتلأت نفوسنا باليقين الجازم أنه خير حتى ألحنا على الله بسؤاله. نقول: حتى هذا المبلغ الجازم من اليقين بأن ذلك الأمر خير وذاك شر لا يُسلم لصاحبه، وأسمعوا قول الرب الحكيم العليم: {ويَدْعُ الإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولًا}.

كيف إذن؟ أعود إلى ما صدرت به هذه السلسلة من المقالات: لن يجد المرء الجواب المطمئن إلا من داخل الدين، فمن آمن بالله ورسوله وكتابه وجد الأطمئنان واليقين، ومن لم يؤمن لن يطمئن أبداً. المؤمن وحده هو الذي يطمئن إلى اختيار الله له، فإنه يقرأ قوله عز وجل: {وعسى أن تكرهوا شيئاً...} ثم يقرأ بعدها: {والله يعلم وأنتم لا تعلمون} فيتووجه إلى الله بالشك الممزوج بالرضا والأطمئنان.

* * *

لو أن امرأً في سوريا فقدَ في هذه الأيام بيته ودكانه فإنه سيأسَى لا محالة، وسوف يخاطب ربه فيقول: لماذا ابتليتني بهذا البلاء يا رب؟ وسوف يقول أكثر منهَ منْ فقد ولده، ولن يشكّ كلاهما في أن ما أصابهما شرٌّ محض لا خير فيه. لكن الله يعرض علينا في كتابه الكريم وجهة نظر أخرى، إنه يقول لنا إن تخريب السفينة خير وإن قتل الغلام خير. فأما أصحاب السفينة فلا شك أنهم أسفوا لما حُرقت سفينتهم، لكنهم سرعان ما اكتشفوا السرّ فحمدوا الله، فقد سلمت السفينة من المصادرية بذلك العيب الهلين، وهو عيب يسهل إصلاحه وتبقى لهم السفينة، ولو صادرها الملك الظالم الذي كان يسعى وراءهم لفقدوها فَقَدَ الأبد. وأما والدا الغلام فلم يدركوا السرّ فعاشا في أسف على فراق الولد، ولو أيقناً أن الله لا يختار لهما إلا الخير لرضيا بقضاءه وحمداً له في كل حال.

لا بد أن ينكشف الغطاء –آجلاً أو عاجلاً– فيظهر للناس أن كثيراً مما يرونـه شرًّا إنما هو في حقيقته خير، ولكن أكثر الناس لا يصبرون. ولو أنهم صبروا لرأوا الخير الكامن في الشر الظاهر فشكروا عليه الله، ولكن أكثر الناس لا يشكرون. كثير من الشر الظاهر يبدو خيراً لنا في هذه الدنيا ولو بعد حين، ولا بد أن تبقى حوادثٌ لن يعرف أصحابها وجة الخير فيها حتى ينكشف الحجاب الأخير، في يوم تجتمع فيه الخالق بين يدي الله فيوفّي الصابرون على البلاء أجراًهم بغير حساب، بغير حساب يا أيها المؤمنون.

* * *

كثيراً ما تكشف الأيام في هذه الدنيا أن الشر الذي حسبه الناس شرًّا لم يكن في حقيقته إلا خيراً مُدْخِراً مؤجلاً، ولعل واحداً من أهم أوجه الخير التي يشتمل عليها كل ضر وشر يصيب الناس هو دفعهم إلى الإيمان وإعادتهم إلى الله، فإن الله الذي خلق الخلق رجا لهم الهدایة ولم يحب لهم العذاب: {ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم}؛ فأرسل الرسل والكتب لدعوتهم إلى الحق وإنقاعهم به، فمن أبي وثبت على الكفر ونسى الله ابتلاه الله بالضر ليذكره به ويعيده إليه.

هذا هو تفسير ما يصيب المرء من بلاء إذا نسي ربه: {وإذا مسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دعا ربه مُنِيباً إِلَيْهِ} وهو تفسير ما يصيب المجتمع كله إذا انحدر إلى الجحود والبعد عن الله: {وإذا مسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دعوا ربه مُنِيبين إِلَيْهِ}. واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: {ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون}.

اللهم أعنَا على ذكرك وشكرك. اللهم إنا نسألك العافية من البلاء والضراء، فإذا ابتليتنا فاجعلنا من الصابرين الشاكرين يا رب العالمين.

الزلزال السوري

المصادر: